

جاسوسية عصر النهضة



تميز عصر النهضة باندثار المجتمع الإقطاعي الأوروبي ، وازدهار التجارة الدولية ، واتساع نطاقها ، وامتداد خطوط مواصلاتها ، والتهافت على احتكار الأسواق العالمية البعيدة ، والتسابق لنقل الحضارة العربية بأفكارها ومعارفها إلى أوروبا ، وإحياء التراث الإغريقي ، مما أوجد ثورة فكرية وحركة نقل ثقافي بدأت في دول حوض البحر الأبيض المتوسط وما حولها ، واتسعت دوامتها حتى شملت العالم كله . وتدرجياً احتدم الصراع حول احتكار الأسواق ، وتطور الأمر فيما بعد إلى حمى الاستعمار . وخلال ذلك كله لعب التجسس دوراً نشطاً متطوراً .

★ أوليفر كرومويل

في إنجلترا حشد «أوليفر كرومويل» لأول مرة جيشاً دائماً ، وكانت الجيوش من قبل تحشد لمعركة وتنفض بعدها . وكان يعرف أن المعركة بينه وبين الملكيين طويلة ، فحشد بالمثل جيشاً من الجواسيس ، وعهد إلى «جون تورليو» بالإشراف عليهم ، فانتشروا في طول الجزيرة وعرضها ، وكان لهم دور هام في انتصاره على الملك «شارل الأول» في يوركشاير عام ١٦٤٤ ، وفي معركة «نيزباي» . ويرجع الفضل للمخابرات في الكشف عن محاولة الملك الاستنجاد بقوات أجنبية ، مما اعتبر خيانة عظيمة ، قدم بمقتضاها للمحاكمة ، فحكم عليه بالإعدام .

قبل زحفه على «أيرلندا» لسحق مقاومة الملكيين ، وقبل ذهابه إلى إسكتلندا على رأس حملة مماثلة ، زودته مخابراته بسيل من المعلومات الدقيقة ، على ضوءها هزم الملكيين هزيمة منكرة في «دانبر» ، وبعدها بعام واحد هزم الأمير «شارلز الثاني» في «وورسيستر» ، وكانت تلك آخر معركة خاضها «أوليفر كرومويل» ، كما كانت أعظمها ، لأنه حقق أعظم النتائج بأقل الخسائر .

لقد لعب حسن تنظيم المخابرات دوراً هاماً في انتصارات كرومويل ، ودعم مركزه ، وتعزيز حكمه الجمهوري بعد اندحار الملكية ، على عكس ما حدث في عهد ابنه «ريتشارد كرومويل» ، الذي أهمل المخابرات ، وخسر الحكم .

★ دانيال ديفو



دانيال ديفو

كان «دانيال ديفو» من أعظم الروائيين في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وكان من أبرع عملاء الملكية . على الرغم من ذبوع صيته بتأليف «روبينسون كروزو» ، إلا أنه كان يعمل في الخدمة السرية للملكة «آن» . كان يبدو كما لو كان ظاهرياً من الشوار ، وموزعى المنشورات ، ومثيرى الفتن ، مما أدخله السجن مرتين ، وكانت خلفيته لا تتيح له أن يجارى عالم التجسس لصالح الملكية .

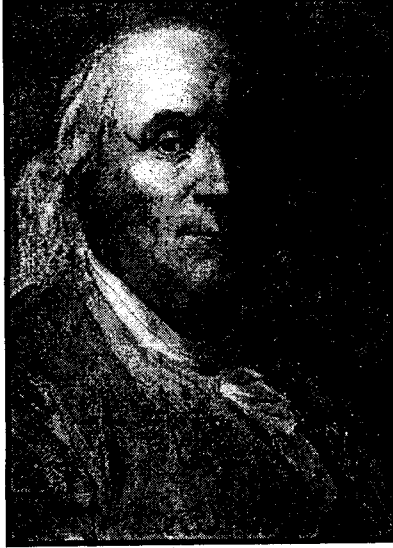
أهم ما يميز «دانيال ديفو» حدة ذهنه ، وقوة عينيه فى تسجيل التفاصيل ، وقدرته على مواصلة الملاحظة دون تعب أو ملل . وهذه هى السمات التى لفتت إليه انتباه «روبرت هارلى» إيرل اكسفورد ، الذى دبر إطلاق سراحه من السجن ، مقابل وعد بالوفاء والولاء لهارلى . وقد وفى بالوعد فعلاً لكل من «هارلى» واللورد «جولد سميث» من بعده ، حتى أن الأخير أوصى به خلفاً له ، حينما أقصى عن مركزه كرئيس للمخابرات عام ١٧١٠ .

تظاهر «ديفو» بأنه سئم المبادئ السياسية وفقد اقتناعه بها تدريجياً كلما أوغل فى مجاهل الجاسوسية ، ولما ازداد خطر «آل سيتوارت» ، أرسله الملك «جورج الأول» فى جولة حول البلاد ، منتحلاً اسم «الكزاندرو جولد سميث» أحياناً ، واسم «كلود جيلوت» أحياناً أخرى ، وأمكنه خلال الجولة أن يكتشف العناصر المؤيدة لآل سيتوارت والتى يحتمل أن تشكل منها المقاومة ، كما استطاع فى نفس الوقت تكوين شبكة مخابرات تتبعه مباشرة .

ومع نجاحه الواضح كجاسوس ، إلا أنه ظل روائياً غزير الإنتاج ، يتفانى فى خدمة الملك جورج ، ولم يوقفه ذلك عن تأليف كتابه «جولة خلال إنجلترا وويلز» فقد كان مغرماً بالتأليف ، فضلاً عن أن الكتابة كانت تدر عليه ربحاً إضافياً .

★ بنيامين فرانكلين

كان بنيامين فرانكلين رجلاً باديء الهدوء والوقار فكرياً وسلوكياً . وكان دبلوماسياً بارعاً ، وعميلاً ذا وجهين . من خلال عضويته في نادي « هيلفاير » المشهور ، تعرف على عدد من الوجهاء وكبار الشخصيات ، من بينهم «لورد بوت» رئيس الوزراء ، وسير «فرانسيس داشوود» مستشار الخزانة ، الذي راسله سرا فيما بعد .



بنيامين فرانكلين

حينما كان «فرانكلين» سفيراً لأمريكا في باريس ، سمح لصديقه ومساعدته الأول «إدوارد بانكروفت» بتنظيم وحدة خدمة سرية بريطانية في السفارة . وهكذا وجدت طريقها إلى لندن كل المعلومات الآتية من «واشنطن» مع كمية ضخمة من المعلومات التي يجمعها العملاء الفرنسيين . وكان فرانكلين يمرر إلى «لندن» المعلومات المتعلقة بمواعيد إبحار السفن ، وأنواع وأوزان الشحنات المرسلة إلى جيش الولايات المتحدة الأمريكية .

الهدف الذي كان يسعى «فرانكلين» إلى تحقيقه هو وضع قدميه في كل من المعسكرين . كان يعرف أن «الملك جورج» سوف يكافئ بسخاء أى شخص يستطيع إعادة المستعمرات تحت ظل بريطانيا ، وكان عليه في الوقت نفسه أن يستعد لحقائق الاستقلال ، وأثبتت الأحداث أنه كان على حق ، ذلك أن «جون كويسى آدمز» ، الرئيس الثانى للولايات المتحدة الأمريكية ، أعرب خلال مفاوضات السلام عن شكه في ولاء «فرانكلين» ، لكنه عجز عن تقديم أدلة تكفى لإدانته . ومما تجدر الإشارة إليه ، أن «بنيامين فرانكلين» الذى توفى عام ١٧٩٠ ، كان عالماً ومخترعاً بالإضافة إلى كونه دبلوماسياً وجاسوساً .

★ إعدام جون أندري

يشار إلى «جون أندري» بأنه الجاسوس الوحيد الذى كرمته بريطانيا بلوحة تذكارية في دير «ويستمستر» . وهو ابن تاجر سويسرى في لندن . ارتقى في

السلك العسكرى حتى رتبة رائد ، وشغل منصب مساعد قائد القوات البريطانية فى نيويورك . وحينما استسلم الجنرال الأمريكى « بينيديكت أرنولد » للقوات البريطانية عام ١٧٨٠ ، أوفد « أندرى » للتفاوض معه .

تزود « أندرى » بجواز مرور يحمل اسماً مزوراً هو « جون أندرسون » ، لكن مما يؤسف له أن تنكره لم يكن محكماً . ولما أوقفته دورية أمريكية شكت فى أمره ، ارتكب أندرى خطأ قاتلاً ، إذ اعترف بأنه ضابط بريطانى وحاول أن يتخلص من المأزق بتقديم رشوة إلى الدورية .

تم القبض عليه ، وحاكمته محكمة عسكرية ، أدانته بتهمة التجسس ، وحكمت عليه بالإعدام شنقاً . تدخل عدد كبير من الشخصيات الأمريكية يطلبون تخفيف الحكم عنه ، إلا أن جهودهم ذهب أدراج الرياح . ونفذ فيه حكم الإعدام فى « تابان » ، فجر اليوم الثانى من أكتوبر عام ١٧٨٠ م . ويعتبر « جون أندرى » نموذجاً لجندى الجاسوسية الذى اقترح معركة لم يعد لها .

★ جيمس روبرتسون

لم يكن جندياً تقليدياً . وكان له اسمان : « آرثر ويلزلى » و « دوق ويلينجتون » . استفاد من خدمته كعميل بينما غيره من القادة الأكثر تحفظاً لم يستفيدوا مثله من المعلومات التى حصلوا عليها . ينتمى « جيمس روبرتسون » إلى دير « البنديكت » فى ريجينزبيرج ، وفيه سمى « بالأخ جيمس » . وكان يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة .

أول مهمة قام بها « جيمس » كانت تحسين مصير ١٥٠٠٠ جندى أسبانى انقطعت بهم الأسباب فى « الدانمارك » . وذلك بتكليف من وزارة الخارجية ، أقنع نابليون حلفاءه السابقين - قبل شن هجومه المفاجئ على أسبانيا - بأن « الدانمارك » مهددة بهجوم بريطانى ، وطلب من أسبانيا إرسال ١٥٠٠٠ من أفضل الجنود تدريباً وتسليحاً لحمايتها .

ذهب « جيمس » إلى مقر الخدمة السرية البريطانية فى « هيليجولاند » ، ومن هناك هربوه فى زورق صغير إلى مصب نهر « ويزر » فى ألمانيا ، منتحلاً اسم « آدم وهرور » . علم أن القوات الأسبانية قد وزعت على سلسلة من الجزر الصغيرة المعزولة فى حالة يرثى لها ، مما جعلها تفقد لياقتها القتالية .

عبر البحر إلى جزيرة «فونين» حيث قابل «الماركيز دى رومانا» القائد الأسباني، اتفق معه على تأمين رحلة بحرية آمنة له ولقواته إلى أرض الوطن ، على سفن الأسطول البحرى الملكى البريطانى .

بعد رحلة زاحرة بالأحداث الخطيرة نجح «روبرتسون» فى العودة إلى «هيليجولاند» . وهناك أمكنه الاتصال بقائد البحرية البريطانية الأدميرال «كبتس» ، الذى استطاع نقل ٩٠٠٠ جندي أسباني من الجنود المعزولين فى جزر ساحل الدانمارك . حملتهم سفينة حربية بعد عدة أيام وأعادتهم إلى أسبانيا ، ليلعبوا دورا هاما فى معركة «ويلينجتون» .

★ الفارس د - يون . رجل أم امرأة؟

فى ٢١ مايو ١٨١٠ ، توفيت فى لندن امرأة فرنسية تعرف باسم «الآنسة د - يون» . وهنا فقط فحص الأطباء جثمانها ، فوضعوا نهاية للجدل الذى أحاط بحياتها ، وبعد أربعة أيام من وفاتها ، نشرت جريدة «التايمز» خبرا مذهلا عنوانه : «الآنسة د - يون كانت رجلا» .

قصة «د - يون» من أغرب قصص الجاسوسية فى التاريخ . بدأ حياته العملية جاسوسا فى خدمة «لويس الخامس عشر» ملك فرنسا عام ١٧٥٦ . أرسله لويس إلى «روسيا» لتحضير معاهدة سرية مع إمبراطورة روسيا . ولما كان وزراؤها متشككين فى الفرنسيين ، ذهب د - يون متكرراً فى شخصية سيدة فرنسية ، وأصبحت الجميلة «ليادى يومونت» ذات حظوة ناجحة فى البلاط الروسى . وقيل



د - يون فى زى الفارس

إنها صارت هدفا لكبار الرسامين يتهافتون على رسمها . وفى الوقت نفسه نجحت «الجميلة ليا» فى عقد المعاهدة مع الإمبراطورة ، وهربتها معها إلى فرنسا .

فى عام ١٧٦٢ وجد «الملك لويس» مهمة أخرى لجاسوسه الموهوب «د - يون» أرسله إلى إنجلترا لمساعدة السفير الفرنسى هناك . ذهب «د - يون» هذه المرة كرجل بشخصيته الحقيقية مع

الإحتفاظ بوظيفته كجاسوس مهمته الرئيسية هى التحقق من مدى استعداد إنجلترا للحرب ، حيث كان الملك لويس الخامس عشر يضع خطة لغزو إنجلترا . كان «د - يون» يؤدى خدماته بمهارة عالية ، أهله بسرعة للحصول على وسام «فارس» ، وجعلته يطمع فى وظيفة السفير ، كان شخصية محبوبة فى المجتمع الإنجليزى الراقى . كان مضيافا يكثر من إقامة الحفلات وينفق عليها ببذخ ، مما أغرقه فى الديون .

لكن الملك لويس بدأ يخشى جاسوسه الذى يعرف وثائق سرية كثيرة قد يستغلها ضده .. لم يفز «د - يون» بوظيفة السفير ، وإنما صدرت له الأوامر بالعودة إلى فرنسا . فامتعض ، ونشب عدااء بينه وبين «جويرتشى» السفير الجديد ، الذى دبر عدة محاولات للاعتداء على حياة «د - يون» . بما فيها القتل والاختطاف ، لكنها فشلت جميعا . لجأ «د - يون» إلى تحصين بيته فى شارع بربور بحى سوهو ، وشد عليه الحراسة برجال مسلحين . وأخفى وثائقه السرية فى خزانة بجدار غرفة نومه ووصلها بمتفجرات .

ذاعت أخبار العدااء المستحكم بين «د - يون» والسفير الفرنسى ، وانحازت جماهير لندن إلى صف «د - يون» ، يسخرون من «جويرتشى» فى الطرقات ، ويحطمون نوافذ بيته بالحجارة . وأخيرا استدعى للعودة إلى فرنسا مهيض الجناح ، وبقي «د - يون» فى إنجلترا ، لكن أحداث العدااء أفقدته بعض اتزانه ، فبدأ يرتدى ملابس النساء فى الأماكن العامة ، وبدأت الشائعات تنتشر حوله ، بما فيها المراهنات على حقيقة جنسه .

فى عام ١٧٧٤ مات الملك لويس ، وألغت الحكومة جهاز الخدمة السرية ، لكن «د - يون» رفض تسليم وثائقه السرية ما لم يصرفوا له مبلغا من المال . وهكذا كان الجاسوس يبتز ملك فرنسا الجديد . وفى عام ١٧٧٥ أرادت حكومة فرنسا أن تضع نهاية لمهزلة الوثائق السرية ، وقررت تفويض الكاتب المسرحى المغامر «كارون بومارشيه» ، مؤلف «حلاق إشبيلية» ، و«زواج فيجارو» ، وكان أيضا جاسوساً فرنسياً .

سافر «بومارشيه» إلى إنجلترا . وبعد مفاوضات عسيرة طويلة ، وافق «د - يون» على تسليم الوثائق ، مقابل أن تسدد حكومة فرنسا ديونه ، والسماح له

بالعودة إلى فرنسا ، وبشرط أن يكف «د - يون» عن إثارة الفضائح ، وأن يرتدى ملابس النساء مدى الحياة .

★ أول مخابرات أمريكية عصابة كولبر

فى عام ١٧٧٥ اشتعل فتيل الحرب بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية . أسرعت بريطانيا باحتلال نيويورك وجزيرة «لونج آيلاند» المجاورة لها ، وسرعان ما أسروا بعدها جاسوسا أمريكيا اسمه «ناثان هيل» ، خلدته كلماته الأخيرة التى صاح بها على المقصلة ، وجعلته أشهر جاسوس فى تاريخ أمريكا ، إذ قال : «آسف فقط ، لأننى لا أملك سوى حياة واحدة أقدمها لوطنى» .

لقد كانت وفاة «هيل» حافزا قويا دفع جورج واشنطن إلى التصميم على تكوين جهاز مخابرات كفاء ، وأسند تشكيله وإدارته إلى رجلين كانا صديقين «لهيل» ، هما : الميجور «بنيامين تولمادج» و «روبرت تاونسيند» ، وأطلق عليها اسم «عصابة كولبر» ، لأن «تاونسيند» كان يستخدم اسم «صمويل كولبر» .

كتب «جورج واشنطن» رسالة بالشفرة عام ١٧٧٨م تعطى فكرة عن نوع المعلومات التى كان يهتم بجمعها ، جاء فيها : «اختلط أكثر ما يمكنك بالضباط واللاجئين ، وزر المقاهى والحانات وغيرها من الأماكن العامة ، اعرف ما إذا كانت فضلات أعمال ملقاة على شاطئ «نهر هارلم» أو بالقرب من حى «هارلم» ، وما إذا كانت «هورنز هوك» قد حصنت . وإذا كان الأمر كذلك ، كم رجلا فى كل مكان ؟ وما عدد وحجم المدافع فى تلك المواقع ؟ .

لا يتوقف نشاط «عصابة كولبر» على تمرير المعلومات . لقد اكتشفوا بالصدفة عام ١٧٨٠م جاسوسا بريطانيا اسمه «جون أندرى» . احتلت القوات البريطانية خليج «أويستر» على «لونج آيلاند» ، واتخذ عدد من الضباط البريطانيين من بيت «تاونسيند» مسكنا . اكتشفت أخت «تاونسيند» واسمها «سارة» أن أحد الضباط يتسلم رسائل تحت اسم مزيف هو : «جون أندرسون» ، بينما اسمه الحقيقى «ميجور جون أندرى» . ارتابت «سارة» فى أمره ، وازداد شكها حينما سمعت الميجور أندرى يلح فى السؤال عن تفاصيل التحصينات والقوات الأمريكية فى «ويست بوينت» ، فأخبرت «تالمادج» أن «أندرى» قد يكون جاسوسا .

مهما يكن الأمر ، فقد استلم «تالمادج» خطابا من الجنرال الأمريكى «بينديكت

أرنولد» فى «ويست بوينت» ، يطلب منه ترتيب حرس إلى «ويست بوينت» ومنها لمرافقة أحد أصدقائه ، واسمه السيد «جون أندرسون» !! هل كان أرنولد يريد الاتصال بعميل بريطاني ؟ هل كان جنرالاً أمريكياً ، أم خائناً ؟ .

أسرع «تالمادج» بإطلاق رجاله فى أعقاب أندري ، لكنه كان متأخراً جداً ، لأن «أندري» كان قد وصل فعلاً إلى «ويست بوينت» ، واتصل بالجنرال «بينديكت أرنولد» ، وسلك طريق العودة خلال الخطوط ، يحمل رسالة من «أرنولد» وبخطه إلى البريطانيين . اشتبه فى أمر «أندري» ثلاثة من الجنود الأمريكيين المتطوعين ، فاعتقلوه ، وحوكم ، وأعدم كجاسوس .

بتفتيش «الميجور أندري» بعد اعتقاله ، اتضح أنه يحمل جواز مرور زوده به «بينديكت أرنولد» ، يحمل اسماً مزيفاً هو «جون أندرسون» . وعثر فى حذائه على رسالة من «بينديكت أرنولد» إلى البريطانيين . يعرض فيها الخيانة بتقديم المعلومات عن تحصينات «ويست بوينت» ، مقابل ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني .

كتب أرنولد فى رسالته : «إذا حددت خطة تعاون لاستيلائكم على ويست بوينت . المعسكر ، والمخازن ، والأسلحة ، وغير ذلك ، فإن ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني - فى اعتقادى - صفقة رخيصة مقابل شئ فى مثل هذه الأهمية العظيمة . وفى الوقت نفسه أطلب دفع ألف جنيه إلى عميلى . أتوقع رداً كاملاً واضحاً . سأذهب إلى «ويست بوينت» فى العشرين من هذا الشهر . أرى أن مقابلة شخصية مع ضابط تثقون فيه ، ضرورية جداً ، لتخطيط الأمور» .
